

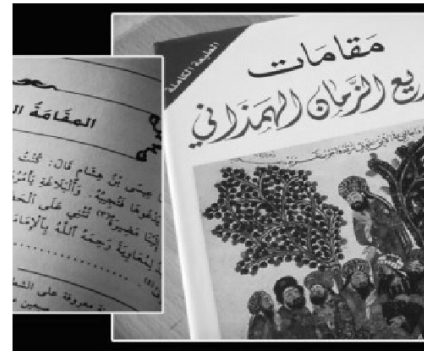
دراسة فنية بديعية لـ (المقامة البغدادية) في مقامات الهمداني

عبد السلام أمين الله أتوتليطو

محاضر العربية، قسم اللغات (شعبة العربية)، كلية الإنسانيات، جامعة الحكمة، إلورن، نيجيريا

المقدمة :

فإن المقامة مأخوذة الفكرة عن الأدب الفارسي. والغرض من كتابتها إظهار البراعة، وحفظ متن اللغة، وتصوير حالة طائفة من الأدباء الفقراء؛ ويمتاز أسلوب المقامة بالالتزام السجع تقريباً، وكثرة المحسنات البديعية، وامتلائها بالألفاظ اللغوية الغريبة، وجمعها بين شعر الكاتب ونثره، وظهور التكلف فيها. ولا شك في أن مقامات بديع الزمان الهمداني تُعدُّ تحفة رائعة من تحف الأدب العربي، وفتحاً جديداً في محاولة كتابة القصة العربية في القرن الرابع الهجري وإن اختلفت في الموضوعات والأغراض. ولا عجب أن بديع الزمان



عالج في مقاماته أخباراً تمت إلى الأدب بصلة أو آراء شخصية استعملها لتصوير البيئة الاجتماعية التي عاش فيها، ولم يكن الهمداني يغفل الناحية الثقافية في مقاماته؛ وإلى جانب الأطراف كان يهتم بالجو الثقافي، إذ كانت المقامة تُلقى في نهاية جلساته فيتأق بها ويأتي بالأسلوب العذب، وأحياناً بالكلمات الغريبة. وفي بعض المقامات قد يأتي بالغاز وأحاج أو بوعظ وإرشاد و إلى غير ذلك من الأمور التي تمت إلى الثقافة. وعلى الرغم من ذلك، قد رأى الباحث أن يعكف على دراسة المقامة البغدادية في كتاب مقامات الهمداني دراسة فنية بديعية.

المقامة:

وقد أطلقت هذه الكلمة على المجلس الذي تسمع فيه الموعظة: "يلقيها الرجل بين يدي الخليفة أو الأمير أو الجماعة في المتأدبين، ولا بد أن يكون لها التأثير والاقناع على السامعين من أن يُعتمد مذهباً بليغاً من الكلام يقرع الإسماع ويدخل إلى النفس ويستهو القلوب، ثم انتهت تلك الكلمة إلى معنى "موعظة" أهل الكدية حتى اتخذها الهمداني لتسمية القصص المعروفة بالمقامات" (١). يلاحظ أن هذه الكلمة تعني: "نوع من الحكايات القصيرة الحافلة بالحركة التمثيلية المعتمدة على المغفرة، ويوجد فيها إكثاراً وتركيزاً على الصنعة والصور، وإغراباً وعناية باللغة وأساليبها، وغير ذلك مما يفيد في تعليم طلاب اللغة والأدب، وهي بالإضافة إلى ذلك تمثل أدب الطبقة الوسطى البعيد عن السلاطين والأمراء، وكما يلاحظ أن "المقامة" تُعتبر بأنها جذر هام من جذور القصة العربية في العصر الحديث.

إن، فمعنى المقامة يشبه معنى الحديث، وأما بالنسبة إلى موضوع المقامات، وهو الكدية والاحتتيال، فقد استوحاه بديع الزمان الهمداني من الجاحظ وحكاياته عن أهل الكدية من الشحاذين. ومهما يكن من أمر فإن كلمة "المقامة" وما احتملته من معانٍ مختلفة ومدلولات متباينة في بعض الأحيان، فهي تسمية مناسبة لهذا الفن من فنون الكتابة أو القصة، ولا شك أن الهمداني هو أول مبتكر لهذه التسمية التي أطلقها على فنه.

١ بلاشير ريجيس (١٩٨٣): تاريخ الأدب العربي، ط٢، دمشق: دار الفكر، دمشق، ص: ٦٥٣.

بديع الزمان الهمذاني

بديع الزمان الهمذاني هو أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد الهمذاني، المشهور ببديع الزمان. ولد في همدان وهي مدينة جبلية تقع الآن في إيران عام ٣٥٨ هـ الموافق ٩٦٩م (١)، وهو عربي مضرّي تغلبي، وهو شديد التعصب للعرب على غيرهم. وكان بديع الزمان الهمذاني ذكياً قوياً ذاكرة، قويّ الشكّيمة بالعربية، مطلعاً على الفارسية وآدابها؛ وكان يفضّل العرب على العجم برغم نشأته الفارسية، صحيح العقيدة الدينية، متشبعاً للعلويين. وللهمذاني ديوان شعر مطبوع وكانت بعض قصائده خالية من التكلف. ويلاحظ أن له ثلاثة أنواع من المؤلفات كما يلي (٢): - ديوان شعر ومعظمه يدور على المحسنات اللفظية والمعنوية، ورسائل مجموعة تدور حول أغراض شتى، والمقامات المشهورة وهي إحدى وخمسون مقامة. وهذه المقامات نماذج من القصة القصيرة ضمّتها الهمذاني اللفظ الأنيق والسجع الرشيق. وصوّرت مجتمعا فيه رجال يحتالون وينصبون وينتقلون من مكان إلى مكان.

خصائص الهمذاني في المقامة:

فهذه هي خصائص المقامة بصورة عامة لدى بديع الزمان الهمذاني كما تلي (٣):

- ١- القصة: لكل مقامة أقصوصة صغيرة تختلف عن قصص المقامات الأخرى، وقد يكون ظهور القصة في مقامات الهمذاني، هو الذي تطوّر حياة العرب واستقرارهم بعد كثرة ترحال ودوام تنقل، وكان للأمثال عندهم شأنٌ كبيرٌ، والأمثال ما هي إلا قصة مضغوطة لها مدلولٌ لحادثة قد تكون طويلة أو قصيرة. كما أن الهمذاني لا يعني يربط أجزاء القصة بعضها ببعض وإنما يعني بالألفاظ والأساليب البليغة.
- ٢- الموضوع: الموضوع في المقامات يختلف بين مقامة وأخرى فلكل مقامة موضوع واحد فتوجد مقامة أدبية أو نقدية أو وصفية أو فكاهية أو مدحية. وكما يصدر في المقامة القريضية (٤) أحكاماً نقدية على عدد من شعراء الجاهلية والعصر الأموي (٥). ولكل مقامة تحتمل اسم البلد الذي حصلت حوادثها فيه. فتوجد المقامات السجستانية، والجرجانية، والأصفهانية، والحمدانية... (٦) أو حسب الموضوع الذي انطوت عليه كالمقامات القريضية، والقردية، والشعرية (٧).
- ٣- الراوية: وهو عيسى بن هشام، في كل المقامات ينقل المقامة من المكان الذي حدثت فيه ويكون أحيانا هو أحد أبطالها، وغالباً ما يكشف عن مغامرات البطل الإسكندري ويجتمع فيه في آخر كل مقامة أينما كانت وحصلت فهو لا يفارقه من بلد إلى آخر. وعيسى بن هشام كما يبدو للباحث من خلال المقامات رجلٌ رقيق القلب يهيب دائماً لمساعدة المحتاجين فيبذل العطاء حتى ولو كان مخدعاً، وقد يقوم أحيانا بالمنكرات ولا يتورّع أن يكون خبيثاً محتالاً مجرّاء للإسكندري في أعماله فيخدع السذج من الأعراب كما ظهر ذلك في المقامة البغدادية (٨) والموصلية (٩).

١ بروكلمان، كارل (١٩٩٣م): تاريخ الأدب العربي، ج ٢، ط ٢، ترجمة: د/عبد الحليم النجار وآخرون، القاهرة: دار المعارف، مصر، ص: ١١٢.

٢ إكرام فاعور، المرجع السابق، ص: ١٨. ثم انظر: البقاعي، يوسف، المرجع السابق، ص: ٦.

٣ علي بوملحم، المرجع السابق، ص: ١١ وما بعدها.

٤ علي بوملحم، المرجع السابق، ص: ١٧. ثم انظر: البقاعي، يوسف، المرجع السابق، ص: ٧.

٥ علي بوملحم، المرجع السابق، ص: ١١.

٦ علي بوملحم، المرجع السابق، ص: ٢٧ وما بعدها. ثم انظر: البقاعي، يوسف، المرجع السابق، ص: ١٦ وما بعدها.

٧ علي بوملحم، المرجع السابق، ص: ١٧ وما بعدها. ثم انظر: البقاعي، يوسف، المرجع السابق، ص: ٧ وما بعدها.

٨ علي بوملحم، المرجع السابق، ص: ٥٦. ثم انظر: البقاعي، يوسف، المرجع السابق، ص: ٤٣.

٩ علي بوملحم، المرجع نفسه، ص: ٨٥. ثم انظر: البقاعي، يوسف، المرجع نفسه، ص: ٧٢.

٤- الحوار: ويلاحظ الباحث أن المقامة عند الهمذاني قد وضعت بشكل حوار بسيط يدور بين الراوي عيسى بن هشام والبطل أبي الفتح الإسكندري الذي يلعب بعقول الناس وأفندتهم ويستمدّ منهم الدراهم والهبات والعطايا. ولكن هذا الحوار قليلٌ ويسيرٌ ويقتصر على سؤال أو تعجب يعقبها رد البطل بقليل من الكلام أو ببضعة أبيات من الشعر.

٥- البطل: اخترع الهمذاني بطلاً لمقاماته سمّاه أبا الفتح الإسكندري وهو البطل المغامر، فسوّره واسع المخيلة، شديد الحيلة والغالب أنه هو والراوي من ابتكار خيال البديع نفسه، وشخصية أبي الفتح تدعو إلى العجب فهو بطلٌ في الكدية وفي المغامرات، وبطلٌ في الفصاحة والشعر بالإضافة إلى أنه يمثل الشخصية الفكاهية، وأحياناً يتظاهر بالتقوى والجِدّ فيرى خطيباً واعظاً، بالإضافة إلى أنه بطلٌ لموضوعات متعددة.

٦- الكدية: يُوجد في مقامات الهمذاني أن أغلبها يعتمد على الكدية باستثناء ثلاث عشرة مقامة لم يتطرق فيها الهمذاني إلى هذا الفن، وإن كانت الكدية قد غلبت على المقامات ولكنها تحوي أغراضاً أخرى كالمدح والوصف والأدب والنقد والوعظ والفكاهة. وجعل الهمذاني أبا الفتح الإسكندري بطل الكنية في مقاماته فظهر بوجوه مختلفة وحيل متعدّدة.

٧- الشعر: قد تتضمّن المقامة شعراً في بعض الأحيان، ويكون هذا الشعر عادة على لسان راويها (١). وكذلك المقامة الوعظية (٢) فقد كثر فيها الشعر وتخلل كل فكرة من أفكارها حتى كوّن قصيدة طويلة مجزأة بين سطور المقامة وجملها.

٨- الوصف: كل مقامة من مقامات الهمذاني تعتمد على الوصف فإما أن يكون الوصف مادياً حسيّاً لأشياء معيّنة كالمقامة الحمدانية (٣) في وصف الفرس حتى أن الهمذاني قد اهتمّ بوصف الجزنيات في الفرس دون أن يترك شيئاً، فوصفه وصفاً مفصلاً مبسطاً مقصوداً وكأنه بذلك يريد أن يظهر الموصوفات ويدلّ على أسماها.

٩- الفكاهة والطرفة مع التهكم والهجاء: في بعض مقامات الهمذاني يظهر عنصر المرح والفكاهة، بشكل نكتة طريفة كالمقامة البغدادية (٤)، وكذلك المقامة المضيرية والحلوانية (٥)، فإنها لا تخلو من فكاهة، ولربما كان هذا سبباً من الأسباب التي جعلت الناس يقبلون عليها.

١٠- الحكم والوصايا: هي كثيرة في مقامات الهمذاني وقد خصّص لها عدّة مقامات منها الوصية (٦)، والأهوازية (٧)، والوعظية (٨). ففيها كثير من الحكم والعظات تتعلق بالمصير والحياة والموت والبخل والعطاء.

مضمون المقامة البغدادية وأشخاصها:

إن المقامة البغدادية نسبة إلى بغداد التي حدثت فيها أحداث المقامة. فقد انتهى الراوي (عيسى بن هشام) الأزاذ وهو في بغداد فقابل رجل سوادي يسوق حمراً في الطريق، فأخذ عيسى ينصب شبابه حول الرجل على أن اسمه أبو زيد، وعلى أنه معروف من زمان بعيد، فيجيب الرجل بأن اسمه أبو عبيد. وهنا يتظاهر عيسى بمعرفته له ولوالده، ويسأله عنه، فما أن يعلم بوفاته حتى يتظاهر بشقّ جيبه حزناً، وما يزال عيسى بالسوادي حتى يسوقه إلى سوق المدينة، ويورطه في

١ علي بوملحم، المرجع نفسه، ص: ٥٦. ثم انظر: البقاعي، يوسف، المرجع نفسه، ص: ٤٣.

٢ علي بوملحم، المرجع نفسه، ص: ١٠٨. ثم انظر: البقاعي، يوسف، المرجع نفسه، ص: ٩٣.

٣ علي بوملحم، المرجع نفسه، ص: ١٢٤. ثم انظر: البقاعي، يوسف، المرجع نفسه، ص: ١١٠.

٤ علي بوملحم، المرجع نفسه، ص: ٥٦. ثم انظر: البقاعي، يوسف، المرجع نفسه، ص: ٤٣.

٥ علي بوملحم، المرجع نفسه، ص: ٨٩ وما بعدها. ثم انظر: البقاعي، يوسف، المرجع نفسه، ص: ٧٦ وما بعدها.

٦ علي بوملحم، المرجع نفسه، ص: ١٦٩. ثم انظر: البقاعي، يوسف، المرجع نفسه، ص: ١٥٤.

٧ علي بوملحم، المرجع نفسه، ص: ٥٣. ثم انظر: البقاعي، يوسف، المرجع نفسه، ص: ٤٠.

٨ علي بوملحم، المرجع السابق، ص: ١٠٨. ثم انظر: البقاعي، يوسف، المرجع نفسه، ص: ٩٣.

شراء ما يشتهي من أجود أصناف الطعام وأعلى أنواع الحلوى، ثم يهرب عيسى بحيلة لطيفة، مما يضطرب السوادي إلى دفع الثمن بعد أن ضرب عدة كلمات وأخيراً ينشد عيسى:

أَعْمَلْ لِرِزْقِكَ كُلَّ آيَةٍ ** لَا تَقْعُدَنَّ بِكُلِّ حَالَةٍ

وَأَنْهَضْ بِكُلِّ عَظِيمَةٍ ** فَالْمَرْءُ يَعْجُزُ لَا مَحَالَةَ (١)

وهذه المقامة من النوع الضاحك الفكاهة الذي يصف فيه بديع الزمان الهمذاني أنواع الحلوى والطعام بطريقة يسيل لها اللعاب وتفتح لها الشهية (٢)؛ فإنها من أشهر مقامات الهمذاني، رواها له (عيسى بن هشام) الذي كان بطلها أيضاً، وتحدثت عن جانب مهم من جوانب الحياة الاجتماعية في بغداد، وصورت بدقة حياة شريحة من أهل المدن، اتخذت الاحتيايل حرفة لها تمارسها بفن واقتدار وتأن وروية، كما تصور حياة شريحة من أهل الريف، وما تميزوا به من بساطة وسذاجة وفقير وحرمان وحرص وثياب واستطاعت بالإضافة إلى ذلك أن تنقل صورة مفصلة دقيقة لبعض أصناف الطعام والحلوى والشراب وغير ذلك. وعلى الرغم من أن الهدف الأول لهذه المقامة ولغيرها من المقامات تعليم الناشئة وطلاب اللغة واستعمالاتها والأدب وطرائقه والصناعة وفنونها، وعلاوة على ذلك، فيلاحظ فيها بعض ملامح الفن القصصي وعناصره، وقد قصد الهمذاني إلى ذلك قصداً، ليكون شكلاً جديداً براقاً يجذب إليه الطلاب، ويسهل عليهم مادة دراستهم، كما قصد الهمذاني به أيضاً أن يتفوق على ابن دريد ومن سبقوه في هذا الطريق. وإن عدد الأشخاص قليل، فهم ثلاثة فحسب، إلا أن الهمذاني رسمهم بدقة وواقعية وفن، ويلاحظ الباحث أن يلمس ذلك في ذكر أهم صفات كل منهم:

١ - عيسى بن هشام: وهو الراوي والبطل، وأهم صفاته أنه فقير، ذو تطلعات أرستقراطية، محتال محترف ماهر سريع البديهة ثرثار واسع المعرفة خبير بأصناف الطعام سادي النزعة يتلذذ بتعذيب الآخرين، ويمثل شريحة من أهل المدن يوجد في كل زمان حيث يوجد سذج وابتعاد عن الدين والأخلاق.

٢ - السوادي: فلاح متعب فقير طيب ساذج، قليل الكلام نهم، الأمر الذي جعله فريسة سهلة لعيسى بن هشام على الرغم من حرصه الذي لم ينفعه.

٣ - الشواء: صانع ماهر مطيع سريع من جهة، وهو فظ غليظ تسبق يده العنيفة لسانه البذيء السوقي من جهة أخرى.

أسلوب المقامة البغدادية:

إن الظاهر في هذه المقامة كغيرها من المقامات أن بديع الزمان الهمذاني يعمد إلى أسلوب أدبي بليغ يهتم في الغاية في مقاماته تعليم الطلاب ألفاظ العربية وأساليبها وتزيينها بزينة العصر وهي التصنيع أو المبالغة في الصناعة. وأما الناحية القصصية فليست غاية، وإنما وسيلة مشوقة جذابة فقط. لذلك عني الهمذاني بالسجع الذي كان مهوى أفئدة العصر عناية عظيمة، ولقد ساعده على هذا السجع حافظة نادرة وبديعة حاضرة وذكاء حاد وإحساس دقيق باللغة ومرادفاتها وأبنياتها واستعمالاتها المختلفة، فلم يكن الهمذاني يوجه إلى الكلام حتى تنهال عليه الألفاظ من كل جهة، فيختار منها ما يشاء ويضعه في مكانه بدقة وبراعة كأنه صانع ماهر، أو مزخرف فنان، لذلك كان سجعه خفيفاً رشيقاً دقيقاً محكماً يستساغ بصورة عامة، ولا يوجد فيه جفاء أو شذوذاً أو ستاراً يحول بينه وبين المعاني، لأنه كان يعرف كيف يصوغ لفظه ويعرضه ويوقعه ويحدث فيه موسيقى عذبة تدخل القلوب وتسرها.

١ علي بوملحم، المرجع نفسه ص ٥٨. ثم انظر: البقاعي، يوسف، المرجع نفسه، ص: ٤٥.

٢ مصطفى الشكعة (١٩٨٣م): بديع الزمان الهمذاني، ط ١، بيروت: عالم الكتب، لبنان، ص: ٤١٨.

دراسة فنية بديعية للمقامة البغدادية:

وللمقامة البغدادية (١) يمكن أن تمثل تمثيلاً مسرحياً على النحو الآتي (٢):

المنظر الأول: خروج الراوي إلى السوق الأزاذ ومقابلة سوادى، وخداع الراوي إياه، وادعاه معرفته ومعرفة والده قبله، ودعوة الراوي السوادى إلى الطعام ضيفاً في السوق.

المنظر الثاني: الراوي والسوادى معا عند شواء، يطلب الراوي ما يشتهي أكله والسوادى يأكل وهو يحسب نفسه ضيفاً، وخروج الراوي بدعوى إحضار السقاء؛ وجلسه بحيث يرى السوادى وهو لا يراه.

المنظر الثالث: خروج السوادى، وإمساك الشواء به وضربه إياه، وإجباره على دفع ثمن ما أكله هو والراوي.

المنظر الرابع: خروج السوادى نادماً على غفلته، باكياً على سذاجته؛ والعقدة هنا في المأزق الذي وضع الراوي نفسه فيه مع السوادى، والحل في الحيلة للتخلص من السوادى وهي تصلح للمسرح الفكاهي أو من نوع الملهاة.

إن هذه المقامة البغدادية تُعدُّ من أجمل وأرق وأفكه وأطول المقامات لبديع الزمان الهمذاني، فقد ألّبت الحيلة ثوب العبث والفكاهة بطريقة طريفة وبلغة خفيفة الوقع، وحوار شيق، كما أن المقامة الحلوانية (٣)، تُعدُّ من الفكاهات القصصية الجميلة لما فيها من النكتة والسخرية والتهكم. وقد استعان الهمذاني لهذه المقامة نوعاً من المحسنات اللفظية والمعنوية من تشجيع واقتباس وجناس وطباق وغيرها، من حيث لا تكاد أي مقامة أو حديث يخلو منها اعتباراً إلى علم البديع. وعلى الرغم من ذلك، عرّف علماء البلاغة بأن علم البديع هو علم من العلوم العربية التي تُعرف به وجوه تحسين الكلام الفصيح المطابق بمقتضى الحال ووضوح الدلالة بخلوها عن التعقيد المعنوي (٤) وهو يشتمل على محسنات لفظية ومحسنات معنوية (٥).

وإذا نظر الباحث في هذه المقامة يجد فيها نوعاً من المحسنات اللفظية والمعنوية كما تلي:

١- السجع:

إن هذا النوع من المحسنات اللفظية في علم البديع كثير الاستعمال في ألسنة البلغاء، فقد وجدوا كتاب الله وسنة نبيه وكلام علي رضي الله عنه مملوءاً به، ولو كان مستكرهاً لما ورد في الكلام البالغ الفصاحة، ولأجل كثرت في ألسنة الفصحاء لا يكاد يبلغ يرتجل خطبة أو يحرّر موعظة إلا كان أكثر كلامه مبنياً على السجع، والرسول عليه السلام لم ينكر السجع على إطلاقه، وإنما أنكر منه سجع الكهان فحسب، لأنهم يريدون به إبطال حق فتتشدق ألسنتهم به للتأثير به على السامع وما يؤدّي إليه من فورة انفعالية (٦). وقد أضاف الهمذاني لهذه المقامة نوعاً من السجع، وإن السجع كما عرّفه

- ١ علي بوملحم، المرجع نفسه ص: ٥٦. ثم انظر: البقاعي، يوسف، المرجع نفسه، ص: ٤٣.
- ٢ عبد الهادي، عبد الله عطية (١٩٩٦م): مقامات بديع الزمان الهمذاني: تحليل ونقد، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، مصر، ص: ٣٢٢-٣٢٣.
- ٣ علي بوملحم، المرجع نفسه ص: ١٤٠. ثم انظر: البقاعي، يوسف، المرجع نفسه، ص: ١٢٥.
- ٤ محمد أحمد قاسم ومحي الدين ديب (٢٠٠٣م): علوم البلاغة: البديع والبيان والمعاني، ط١، طرابلس: المؤسسة الحديثة للكتاب، ليبيا، ص: ٥٣. ثم انظر: القزويني، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن (١٩٩٧م): التلخيص في علوم البلاغة، ط١، تحقيق: د/عبد الحميد هندواوي، بيروت: دار الكتب العلمية، لبنان، ص: ٨٦ وما بعدها، ثم انظر: القزويني، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن (٢٠٠٤م): الإيضاح في علوم البلاغة، بيروت: المكتبة العصرية، لبنان، ص: ١٩٠ وما بعدها. ثم انظر: حسيب غالب وأديب صبيعي (غير مؤرخ): بيان العرب في المعاني والبيان والبديع والعروض، بيروت: دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، لبنان، ص: ٢١٣.
- ٥ عتيق، عبد العزيز (١٩٩٨م): علم البديع، القاهرة: دار الآفاق العربية، مصر، ص: ٧٦ وما بعدها. القزويني، بن عبد الرحمن، المرجع نفسه، ص: ١٩٠.
- ٦ عتيق، عبد العزيز، المرجع نفسه، ص: ٧ وما بعدها.

البلاغيون " هو اتفاق كلمتين أو أكثر في الجملة الواحدة في الحرف الأخير وهذا الاتفاق يحدث جرساً موسيقياً تلذ له الأسماع، ويحسن به الكلام ويزداد تأثيراً في النفوس (١)، فإنه من المحسنات البديعية التي يلجأ إليها الأدباء لترتين أساليبهم وتحسينها، ومنه قال السكاكي "السجع في النثر كالكافية في الشعر" (٢). وهو أنواع منها (٣):

(أ)- السجع المطرف: وهو اتفاق الكلمتين في الحرف دون الوزن كقوله تعالى: {مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ وَقَاراً} (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً (١٤) { [نوح: ١٣-١٤]، ف"وقارا وأطوارا" متفقتان في الحرف الأخير دون الوزن. ومنه قوله الهذاني: "اشْتَهَيْتُ الْأَرَادَ، وَأَنَا بَبْعَاذٌ" (٤)، ومنه قوله أيضاً: "وَلَيْكُنْ لَيْلِي الْعُمَرُ، يَوْمِي النَّشْرُ، رَقِيقُ الْقَشْرِ" (٥).

(ب)- السجع المتوازن: هو اتفاق الكلمتين في الوزن دون الحرف، كقوله تعالى: {وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ} (١٥) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (١٦) { [الغاشية: ١٥-١٦]، ف"مصفوفة ومبثوثة" متفقتان في الوزن دون الحرف الأخير وهو ما قبل التاء. ومنه قوله الهذاني: "لَوْلُو الدُّهْنُ، كَوَكَبِي اللَّوْنُ، يَذُوبُ كَالصَّمْعِ، قَبْلَ الْمَضْغِ" (٦).

(ج)- السجع المتوازي: هو اتفاق الكلمتين في الوزن و الحرف معاً، كقوله تعالى: {فِيهَا سُرُورٌ مَرْفُوعَةٌ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ} [الغاشية: ١٢]. ف"مرفوعة و موضوعة" متفقتان في الوزن و الحرف معاً. ومنه قوله الهذاني: "وَلَيْسَ مَعِيَ عَقْدٌ، عَلَى نَقْدٍ" (٧).

(د)- السجع المرصع: هو اتفاق الوزن في جميع الألفاظ أو أكثرها وقابل الكلمة بما يعادلها في الوزن، كقوله تعالى: {وَأَتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ (١١٧) وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (١١٨)} [الصافات: ١١٧-١١٨]. ف "وأتيناهما- وهديناهما"، "الكتاب - الصراط"، "المستبين - المستقيم" وكل من هاتين الكلمتين متفقتان في أوزان الفواصل يجعل للكلام رونقاً وطلاوة؛ لما في ذلك من الاعتدال المطلوب طبعاً. ومنه قوله الهذاني: "فَهُوَ أَجْرَى فِي الْخُلُقِ، وَأَمْضَى فِي الْعُرُوقِ" (٨). وعلى هذا، قد استعان بديع الزمان الهذاني لذلك في هذه المقامة بتقصير سجعاته وضبط أنغامه كما كانت مذكورة أعلاه.

٢- الجناس:

يُوجَدُ هذا النوع من المحسنات اللفظية أيضاً في هذه المقامة. واعتاد البلاغيون على أن الجناس: هو تشابه الكلمتين في اللفظ لا في المعنى (٩) وهو أنواع متعددة يُذكر منها ما تلى (١٠):-

(أ)- الجناس التام: وهو أن تتفق الكلمتين نطقاً تختلف معنى مثال ذلك قوله تعالى: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ...} [الروم: ٥٥]، فالمراد بالساعة الأولى: يوم القيامة، وبالثانية: الساعة الزمنية.

- ١ القمطاي، رمضان سعد والآخرين (١٩٩٧م): الأدب والنصوص والبلاغة والنقد، ج٢، بنغازي: دار الكتب الوطنية، ليبيا، ص: ٥٠.
- ٢ حسيب غالب وأديب صيعبي (غير مؤرخ): بيان العرب في المعاني والبيان والبديع والعروض، بيروت: دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، لبنان، ص: ٢٥١. ثم انظر: السكاكي، مفتاح العلوم، ص: ٤٣١.
- ٣ محمد أحمد قاسم ومحي الدين ديب، المرجع السابق، ص: ١٠٦ وما بعدها. ثم انظر: القزويني، بن عبد الرحمن، المرجع السابق، ص: ١٠٦ وما بعدها.
- ٤ علي بوملحم، المرجع نفسه، ص: ٥٦. ثم انظر: البقاعي، يوسف، المرجع نفسه، ص: ٤٣.
- ٥ علي بوملحم، المرجع نفسه، ص: ٥٧. ثم انظر: البقاعي، يوسف، المرجع نفسه، ص: ٤٤.
- ٦ علي بوملحم، المرجع نفسه، ص: ٥٨. ثم انظر: البقاعي، يوسف، المرجع نفسه، ص: ٤٤.
- ٧ علي بوملحم، المرجع نفسه، ص: ٥٦. ثم انظر: البقاعي، يوسف، المرجع نفسه، ص: ٤٣.
- ٨ علي بوملحم، المرجع نفسه، ص: ٥٧. ثم انظر: البقاعي، يوسف، المرجع نفسه، ص: ٤٤.
- ٩ الهاشمي، أحمد (٢٠٠٣م): جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، بيروت: دار الفكر، لبنان، ص: ٣٤٣.
- ١٠ محمد أحمد قاسم ومحي الدين ديب، المرجع السابق، ص: ١١٤-١١٩.

(ب)- الجنس المركب: وهو ما كان أحد لفظيه مركباً، وهو على ثلاثة أنواع:

أ- الجنس المتشابه: وهو ما اتفق ركناه لفظاً وخطاً:

كقول ابن معصوم: قف طالباً فضل الآله وسانلاً ** واجعل فواضله إليه وسانلاً

"وسانلاً" التي في الشطرة الأولى من البيت مركبة من كلمتين "الواو وسانلاً" ومعناها السؤال.

"وسانلاً" التي في الشطرة الثانية من البيت كلمة واحدة ومعناها الوسيلة. وهما متشابهتان لفظاً وخطاً

ب- الجنس المفروق: وهو ما تشابه ركناه لفظاً لا خطاً. وسمي مفروقاً لافتراق الركنين في الخط.

كقول الشاعر: مات الكرام وانقضوا ومضوا ** ومات في أثرهم تلك الكرامات

وخلفوني في قوم ذوي سفه ** لو ابصروا طيف ضيف في الكرى ماتوا

"الكرامات" في البيت الأول و "الكرى ماتوا" في البيت الثاني متشابهتان في اللفظ مختلفتان في الخط.

ج- الجنس المرفوق: وهو ما كان أحد ركنيه مستقلاً، والآخر مرفوقاً من كلمة أخرى؛ أي مركباً من كلمة وبعض كلمة،

حتى يعتدل ركنه التجنيس. كقول الحريري: ولا تله عن تذكار ذنبك، وأبكه ** بدمع يضاحي المزن حال مصابه

ومثل لعينيك الحمام ووقه ** وروعة ملأه ومطعم صبه (١)

"مصابه" في الشطرة الأولى من البيت كلمة تامة، إلا أنه مركب في الشطرة الثانية، فقد أخذت الميم المفتوحة من مطعم وأضيفت إلى "صابه" وهو شجرة مرّ المذاق.

(ج)- الجنس المحرف: وهو ما اتفقت فيه الحروف بين الكلمتين، إلا أن إحداها تخالف الأخرى في الهيئة، أي في

الحركة فقط، أو في الحركة والسكون. كقوله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ (٧٢) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذِرِينَ

(٧٣)} [الصفافات: ٧٢-٧٣]. وقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "اللهم كما حسنت خلقي فحسن خلقي".

وقول المعري: لغيري زكاة من جمال، فإن تكن ** زكاة جمال فأذكرني ابن سبيل (٢)

(د)- الجنس المصحف: وهو تشابه الكلمتين في الحروف واختلافهما في النقط كقوله تعالى: {فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٨)

وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (٩)} [الضحى: ٨-٩]. وقول أبي فراس: من بحر شعرك أعترف ** وبفضل علمك أعترف (٣)

ومنه قوله الهمداني: "ظفرنا والله بصيد، وحيّاك الله أبا زيد" (٤). ومنه أيضاً: "وليس معي عقد، على نقد" (٥).

(هـ)- الجنس الناقص: هو ما اختلف فيه اللفظان في واحد من حروفه في الهيئة والنوع والعدد والترتيب، وقد تكون

الزيادة بحرف واحد سواء كانت في أول أو في الوسط أو في الآخر، كقوله تعالى: {والتفت الساق بالساق (٢٩) إلى ربك

يوْمِنِذِ الْمَسَاقِ (٣٠)} [القيامة: ٢٩-٣٠]، بزيادة الميم في الأول.

ومنه قوله الهمداني: أعمل لِرِزْقِكَ كُلَّ آلِه ** لا تَفْعَدَنَّ بِكُلِّ حَالِه

١ الحريري، أبو محمد القاسم بن عثمان (٢٠٠٣م): كتاب مقامات الحريري، ط٤، بيروت: دار الكتب العلمية، لبنان، ص: ٢٠٣.

٢ أبو العلاء المعري (١٩٨٧م): ديوان المعري، مكة المكرمة: مكتبة مكة المكرمة، ص: ٥٥.

٣ أبو فراس الحمداني، حارث بن سعيد (٢٠٠٣م): ديوان أبي فراس الحمداني، تحقيق: إبراهيم السامرتي، عمان: دار الفكر للنشر والتوزيع، الأردن، ص: ١١٥.

٤ علي بوملحم، المرجع نفسه، ص: ٥٦. ثم انظر: البقاعي، يوسف، المرجع نفسه، ص: ٤٣.

٥ علي بوملحم، المرجع نفسه، ص: ٥٦. ثم انظر: البقاعي، يوسف، المرجع نفسه، ص: ٤٣.

وَأَنهَضُ بِكُلِّ عَظِيمَةٍ ** فَالْمَرْءُ يَعْجُزُ لَا مَحَالَةَ (١)

(و)- الجنس المضارع والجناس اللاحق: وهو أن تختلف الكلمتان المتجانسان في حرف واحد، فإن كان الحرفان المختلفان متقاربين في المخرج سمي مضارعاً، فإن كان الحرفان المختلفان غير متقاربين في المخرج سمي لاحقاً. ومثال الجنس المضارع كقوله (ص): "الْخَيْلُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيهَا الْخَيْرُ: الْأَجْرُ وَالْمَغْنَمُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ" فاللام والراء متقاربان في المخرج. ومنه قول الخطيب: مطاعين في الهيجا مطاعيم في الدجى ** بنى لهم آبائهم وبنى الجد ومثال الجنس اللاحق قوله تعالى: {وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ} [الهزة: ١]، وقول ابن معصوم: قد طلع البدر في كواكبه ** كالملك يختال في مواكبه. ومنه قوله الهذاني: "وَمَدَدْتُ يَدَ الْبَدَارِ، إِلَى الصَّدَارِ" (٢).

(ز)- جناس القلب أو العكس: وهو ما تساوت حروف ركنيه عدداً، واختلفت ترتيباً. كقوله تعالى: {إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ} [طه: ٩٤]، وقوله صلى الله عليه وسلم: "اللَّهُمَّ اسْتِرْ عَوْرَاتِنَا وَآمِنْ رَوْعَاتِنَا".

٣- الاقتباس:

إن المقصود بالاقتباس عند البلاغيين هو تضمين النثر أو الشعر شيئاً من القرآن الكريم أو الأحاديث النبوية من غير دلالة على أنه منهما (٣) كقول ابن سناء الملك: رحلوا فلست مسائل عن دراهم ** أنا "باخع نفسي على آثارهم" ولا بأس بتغيير يسير في اللفظ المقتبس الوزن أو غيره نحو قوله: قد كان ما خفت أن يكونا ** "إنا إلى الله راجعون" (٤) وتوجد في هذه المقامة البغدادية أن الهذاني ضمن مقامته بآية من القرآن الكريم مثل قوله: "إنا لله وإنا إليه راجعون" (٥) وقوله: "لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم" (٦). فقد ضمن مقامته أيضاً بيتين من الشعر أنهاها بهما. نحو قوله:

أَعْمَلُ لِرِزْقِكَ كُلَّ آلَةٍ ** لَا تَقْدَعَنَّ بِكُلِّ حَالَةٍ

وَأَنهَضُ بِكُلِّ عَظِيمَةٍ ** فَالْمَرْءُ يَعْجُزُ لَا مَحَالَةَ (٧)

خاتمة البحث:

وفي خلال هذه السطور يلاحظ الباحث أن كثيراً من الأدباء قد أعجبوا بمقامات بديع الزمان الهذاني، لما كان لها من صدى واسع في مختلف البلدان العربية، وأخذوا يقلدونها مغرقين في الصناعة والتنميق. وقد اشتهر بذلك جماعة من أرباب هذا الفن. إذ إن المقامة قصة قصيرة مختارة تدور حوادثها حول رجل أديب فقير يجول في البلاد ليحتال بأدبه كسب رزقه. إذن، فقد توصل هذا البحث إلى كثير من النتائج وسيكتفي الباحث بذكر أهم تلك النتائج على النحو الآتي:

- إن كلمة "المقامة" تدلّ على مكان وقوع الحادثة التي يرويها بديع الزمان الهذاني كالمقامة البغدادية والأصفهانية والبصرية والقزوينية... وقد تدلّ على موضوع الحادثة كالمقامة الأسدية والدينارية والحرزية؛ وهي-سواء دلت على هذا أو ذاك- عبارة عن قصة قصيرة.

١ علي بوملحم، المرجع نفسه ص ٥٨. ثم انظر: البقاعي، يوسف، المرجع نفسه، ص: ٤٥.

٢ علي بوملحم، المرجع نفسه، ص: ٥٧. ثم انظر: البقاعي، يوسف، المرجع نفسه، ص: ٤٤.

٣ علي الجارم ومصطفى أمين (٢٠٠٤م): البلاغة الواضحة: البيان والمعاني والبيدع، القاهرة: الدار المصرية العصرية، مصر، ص: ٢٦٩-٢٧٠. وانظر: القزويني، جلال الدين بن عبد الرحمن، المرجع السابق، ص: ١١٤.

٤ حضرات حفي بك ناصف والآخرين (د.ت): كتاب قواعد اللغة العربية، ط ١٣، د.ط، ص: ١٣٢.

٥ علي بوملحم، المرجع نفسه، ص: ٥٧. ثم انظر: البقاعي، يوسف، المرجع نفسه، ص: ٤٣.

٦ علي بوملحم، المرجع نفسه، ص: ٥٧. ثم انظر: البقاعي، يوسف، المرجع نفسه، ص: ٤٣.

٧ علي بوملحم، المرجع نفسه، ص: ٥٨. ثم انظر: البقاعي، يوسف، المرجع نفسه، ص: ٤٥.

- إن بديع الزمان الهمذاني هو راند فن المقامة بلا منازع، وقد تأثر بغيره ممن سبقوه في بعض الأفكار، أو الثروة اللغوية، أو بعض الموضوعات، لكن هذا الفن هو رائده من دون جدال.
- أثبتت الدراسة أن الهمذاني أنشأ ٤٠٠ مقامة، وقد فقد الأدب العربي الكثير منها؛ ولم يبق إلا إحدى وخمسين مقامة.
- كان لمقامات الهمذاني تأثير عريض في الدرس الأدبي، وهذا مما جعلها توحى إلى بعض الأدباء أعمالاً مشهورة.
- إن مقامات الهمذاني قد نسبت إلى الأماكن التي رحل إليها بديع الزمان الهمذاني، أو إلى الزمن الذي أنشأ فيه بعض المقامات، أو إلى موضوع المقامة نفسه، أو إلى راويها.
- نثر البطل في مقاماته كثيراً من الشعر والنقد والأحاجي، مما يدل على تمكن الهمذاني من الأدب.
- تأثر كل من البطل والراوي بالقرآن الكريم، والحديث الشريف، والشعر العربي. وكانا معجبين بالفصاحة؛ وكان كل منهما يسابق الآخر في روعة البيان، والثروة اللغوية، وذلك يدل على ثقافة الهمذاني، وبراعته في البيان.
- كان الهمذاني رانداً لفن الأقصوصة، وصاحب الإرهاصة للقصة في الأدب العربي الحديث. وتعدّ مقاماته أولية القصة، كما يمكن أن تشاهد كمشاهد مسرحية.
- كان من أهداف الهمذاني في إنشاء المقامات حب اللغة، والاهتمام بها، ودفع الناشئة إلى مدارستها.
- وللمقامات أسلوبها الخاص، تتحكم فيها الصنعة ويقيدها فن البديع ولا سيما السجع والجناس، ويكثر فيها الاقتباس والتضمين للأمثال والأشعار، وتستخدم فيها الصور البيانية، وغالباً ما يختتمها الهمذاني بأبيات من الشعر كما كان في المقامة البغدادية وغيرها.

قائمة المراجع والمصادر

١. إكرام فاعور (١٩٨٣م): مقامات بديع الزمان الهمذاني وعلاقتها بأحاديث ابن دريد، ط ١، بيروت: دار إقرأ.
٢. بروكلمان (١٩٩٣م): تاريخ الأدب العربي، ج ٢، ط ٢، ترجمة: د/عبد الحليم النجار، القاهرة: دار المعارف.
٣. بلاشير ريجيس (١٩٨٣): تاريخ الأدب العربي، ط ٢، دمشق: دار الفكر، دمشق.
٤. حسيب غالب وأديب صيعبي (غير مؤرخ): بيان العرب في المعاني والبيان والبديع، بيروت: دار الكتاب.
٥. الحريري (٢٠٠٣م): كتاب مقامات الحريري، ط ٤، بيروت: دار الكتب العلمية، لبنان.
٦. رشدي، محمد حسن (١٩٧٤م): أثر المقامة في نشأة القصة المصرية الحديثة، القاهرة: مصر.
٧. شوقي، ضيف (١٩٦٣م): المقامة، القاهرة: دار المعارف، مصر.
٨. الشريشي، أبو العباس أحمد (١٣٠٠هـ): شرح الشريشي لمقامات الحريري، القاهرة: دار المعارف، مصر.
٩. عبد الهادي، عبد الله عطية (١٩٩٦م): مقامات بديع الزمان الهمذاني: تحليل ونقد، الإسكندرية: دار المعرفة.
١٠. فيكتور الكك (١٩٦٠م): بديع الزمان، بيروت: المطبعة الكاثوليكية، لبنان.
١١. مازن المبارك (١٩٨١م): مجتمع الهمذاني من خلال مقاماته، ساحة الحجاز: دار الفكر، دمشق.
١٢. محمد عبده (١٩٨٨م): مقامات أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني، تقديم: جمال الغيطاني، القاهرة: مصر.
١٣. مصطفى الشكعة (١٩٨٣م): بديع الزمان الهمذاني، ط ١، بيروت: عالم الكتب، لبنان.
١٤. الهمذاني، بديع الزمان (١٨٩٠م): رسائل بديع الزمان الهمذاني، بيروت: المطبعة الكاثوليكية، لبنان.
١٥. الهمذاني، بديع الزمان (١٩٨٧م): ديوان بديع الزمان الهمذاني، ط ١، بيروت: دار الكتب العلمية، لبنان.